الفرق بين الأجل والعمر والتوفيق بين مدِّ العمر وتحديد الأجل

مستلَّة من أشرطة الشيخ صالح آل الشيخ

حفظه الله تعالىٰ

اعتنىٰ بها

سالم بن محمد الجزائري

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الطَّحاوي رحمه الله: (وَضَرَبَ لَهُمْ آجَالًا)، الآجال جمع أجل، وضرْب الآجال معناه: أنه جل وعلا جعل لكل شيء أجلًا ينتهي إليه، فما من شيء إلَّا وله أجل ينتهي إليه المراد من خلقه، فالسَّمٰوات لها أجل، والأرض لها أجل تنتهي إليه، وهكذا مخلوقات الله جل وعلا، ومنها ما جعل الله جل وعلا له أجل يعلمه سبحانه ولا يعلمه العباد، قد يطول جدا وقد لا يكون له نهاية، بعلم الله سبحانه وتعالىٰ له.

الآجال غير الأعمار، فالعمر أخصُّ من الأجل، ولهذا قال من قال من أهل العلم: إن الأجل في القرآن لا يقبل التَّغيير ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[يونس:٤٩]، ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾[يونس:٤٩] في الأمم. وقال جل وعلا في العمر ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾[فاطر:١١].

وهٰذا يدلُّك علىٰ أن الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- ضرب آجالا وجعل أعمارًا، والجمع بين هٰذا وهٰذا عند طائفة من المحقِّقين من أهل العلم أنَّ الأجل لا يقبل التَّعديل ولا التَّغيير، وأمَّا الأعمار فهي قابلة لذلك، بأسبابٍ أناط الله جل وعلا بها التَّغيير في قدره السَّابق، كما قال سبحانه ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[الرعد:٣٨]، ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[الرعد:٣٩].

فإذن أجل العباد، أجل المخلوقات، أجل الأمم هٰذا هو الذي في اللّوح المحفوظ، لا يقبل التَّغيير، ولا يقبل التَّبديل، جعله الله جل وعلا علىٰ هٰذا النحو علىٰ ما اقتضته حكمته سبحانه وتعالىٰ، وأما الأعمار فإنَّها تقبل التغيير، وقَبولها للتغيير لما في التَّقدير السَّنوي للعباد؛ لأنَّ القدر:

منه **تقدير عام** وهو الأصل العظيم، وهو ما جاء في قوله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السَّمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة**» هٰذا التَّقدير العام في اللوح المحفوظ.

ومنه **تقدير خاص**، التقدير الخاص يختلف، فيه تقدير لكل مخلوق في رحم أمه، وثَم تقدير سنوي في ليلة القدر، وثَم تقدير يومي أيضًا لما يفعله العباد.

إذا تبين ذلك فإنَّ التقدير الذي يقبل التغيير هو ما في صُحف الملائكة، وهٰذا الذي يُحمل عليه قول الله جل وعلا: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾[فاطر:١١]، بعض أهل العلم في التَّفسير فهم من الآية أن معناها: وما يعمر من معمر ولا يُنقص من عمر معمر آخر إلا في كتاب، وأنّ تعمير المعمَّر يكون بسببٍ قد قُدِّر هو التَّعمير معا، فيكون قد عُمِّر، لا بالنسبة إلىٰ أنه كان عمره ليس بطويل فأطيل فيه.

وهٰذا يخالف ما جاءت به السُّنة الصَّحيحة من قول المصطفي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**من سرَّه أن يُبسط له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه**»، وبقوله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فيما صح عنه: «**ولا يزيد العمر إلّا البِرّ**»، قال هنا: (**من سرّه أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره**) يعني أن زيادة الأرزاق منوطة بسبب، وأن تعمير المعمر

زيادة في عمره نَسْءُ الأثر هٰذا مربوط بسبب، وهٰذا الذي ارتبط بالأعمار؛ بالآثار.

أمَّا الآجال فلا، الآجال لا تقبل تغييرًا، لأنها هي الموافقة لما في اللَّوح المحفوظ، يعني الأجل الذي إليه النِّهاية، أمَّا العمر فهذا يقبل التغيير، ولهذا صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالىٰ في سورة الرعد: ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشاءُ وَيُثْبِتُ﴾[الرعد:٣٩] أنه في صحف الملائكة، ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[الرعد:٣٩] يعني اللوح المحفوظ. وهٰذا واضح.

فقول الطَّحاوي رحمه الله: (وَضَرَبَ لَهُمْ آجَالًا) يعني: ما كان من التَّقدير السَّابق قبل خلق السَّمٰوات والأرض.

وقال حفظه الله في مكان آخر من شرحه للطحاوية:

الله جل وعلا جعل كتابته للأشياء لها خمس أحوال:

أوَّلها وأقدمها وأعظمها كتابة الله جل وعلا مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة في اللوح المحفوظ، هذه هي الكتابة التي كانت قبل الخلق، وهذه الكتابة لا تتبدل ولا تتغير، رُفعت الأقلام وجفت الصحف فيجد العبد ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ من خير أو شر.

ثانيها كتابته لمقادير الخلق من حيث الشقاوة والسعادة، ونعني بالخلق خاصةَ المكلفين، وهذه هي التي تأتي فيها أحاديث الميثاق وأنّ الله جل وعلا استخرج ذرية آدم من صلبه فنثرهم أمامه كهيئة الذَّر وأخذ عليه أن لا يشركوا به شيئا سبحانه وتعالىٰ.

ثالثها هو التقدير العمري، والعُمري هو الذي يكون والإنسان في بطن أمه فإنّ النطفة إذا صارت في الرحم وبلغت ثنتين وأربعين ليلة أتاها ملكا، فأمره الله جل وعلا كتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد.

رابعها الكتابة السنوية والكتابة السنوية هي التي تكون في ليلة القدر قال جل وعلا: ﴿حم(١) وَالكِتَابِ المُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ(٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[الدخان:١-٤] هذه تكتب فيها المقادير في تلك السنة من السنة إلىٰ السنة، معناها أن الله جل وعلا يوحي إلىٰ ملائكته بأن يكتبوا أشياء منها في اللوح المحفوظ فتكون بأيديهم مما سيحصل للناس .

خامسها: التقدير الأخير هو التقدير اليومي واستدل له أهل العلم بقوله سبحانه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[الرحمن:٢٩].

إذا تبينت هذه المراتب فإنه قد ثبت في السنة أن الله جل وعلا يزيد في العُمُر، ينسأ في الأثر، يبسط في الرزق، فقال عليه الصلاة والسلام «**من سرّه أن يُبسط له في رزقه ويُنسأ له في أثره أن يصل رحمه**» يعني الرزق صار يتغير والأثر العمر صار يتغير، وقال أيضا في الحديث الآخر «**إنّ العبد ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه**» فمعناه فيه حرمان لبعض الرزق، وهذا معنىٰ قول الله جل وعلا في آية سورة الرعد ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[الرعد:٣٩].

فنظر أهل العلم في ذلك فقالوا:

إن المراتب الثلاث الأُوَّل هذه لا تتغير ولا تتبدل؛ يعني الأول السابق القديم الذي في اللوح المحفوظ، وهؤلاء إلىٰ

الجنة وهؤلاء إلىٰ النار، وكذلك كتب الملك الكلمات الأربع لهذا جاء في آخر الحديث مؤكدا عليه الصلاة والسلام علىٰ أنها لا تتغير.

أيش الذي يتغير ويتبدل ويحدث فيه المحو والإثبات والزيادة إلىٰ آخره ويؤثر فيه الدعاء ويؤثر فيه الأعمال الصالحة؟ هذا التقدير السنوي، وأما التقدير العمري هو ما فيه النهاية؛ يعني ما كتبه الله جل وعلا بما فيه نهاية العبد وما فيه نتيجة أثر الدعاء وأثر الأعمال إلىٰ آخره مما قد يكون متغيّرا.

إذن فقوله جل وعلا ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشاءُ وَيُثْبِتُ﴾ يعني مما في أيدي الملائكة من الصحف ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشاءُ وَيُثْبِتُ﴾ وكذلك من التقدير اليومي.

إذا كان كذلك فهذا به تفهم الأحاديث التي فيها تغيير الرزق وتغيير العمر والنَّسء في الأثر أو حرمان الرزق بالذنب ونحو ذلك، ومنه أيضا تفهم قول عمر ﷺ فيما جاء عنه: اللهم إن كنت كتبتني شقيا فاكتبني سعيدا؛ يعني بما يتعلق بتلك السنة من الإضلال والهداية.

۞۞۞۞